ثالثا:

الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوروبية

يتّفق المؤرّخون على أنّ عصر النهضة في أوربا، بدأ في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، حيث شرع الأوربيون بعملية دراسة انتقائية للعلوم والمعارف الإغريقية والعربية، مترافقة بحركة ريادية نشطة للاستكشافات الجغرافية .وتبع ذلك الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج العلمي التجريبي، في دارسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية، والذي تبلور وتكامل في القرن السابع عشر.

إنّ هذه التغيرات مجتمعة أدّت إلى ترسيخ عصر النهضة أو ما سمّي بعصر التنوير وأسهمت بالتالي في بلورة الانثربولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر، كعلم يدرس تطوّر الحضارة البشرية في إطارها العام وعبر التاريخ الإنساني .الأمر الذي استلزم توافر الموضوعات الوصفية عن ثقافات الشعوب وحضا راتها، في أوروبا وخارجها من أجل المقارنات والتعرّف إلى أساليب حياة هذه الشعوب وترتيبها بحسب مراحل تطوريّة معيّنة، بحيث يضع ذلك أساساً لنشأة علم الأنثروبولوجيا.

لعلّ أهمّ رحلة استكشافيّة مشهورة أثّرت في علم الأنثروبولوجيا تلك التي قام بها كريستوف كولومبوس إلى القارة الأمريكية ما بين 1492-1502 حيث زخرت رحلته بالمشاهدات الميدانية واحتكاكاته بسكان العالم الجديد، فجمع الكثير من المعلومات والمعارف عن أساليب حياة تلك الشعوب وعاداتها وتقاليدها، اتّسمت بالموضوعية نتيجة للمشاهدة المباشرة.

وممّا قاله في وصف سكان جزر الكاريبيان في المحيط الأطلسي " : إنّ أهل تلك الجزر كلّهم عراة تماماً، الرجال منهم والنساء، كما ولدتهم أمهاتهم .ومع ذلك، فثمّة بعض النساء اللواتي يغطين عورتهنّ بورق الشجر، أو قطعة من نسيج الألياف تصنع لهذا الغرض .ليست لديهم أسلحة ومواد من الحديد أو الصلب وهم لا يصلحون لاستخدامها على أيّة حال .ولا يرجع السبب في ذلك ضعف أجسادهم، وإنّما إلى كونهم خجلون ومسالمون بشكل يثير الإعجاب ." ..وكتب في وصفه لسكان أمريكا الأصليين " :إنّهم يتمتّعون بحسن الخَلق والخُلُق، وقوّة البنية الجسدية .كما أنّهم يشعرون بحرية التصرّف فيما يمتلكون، إلى حدّ أنّهم لا يتردّدون في إعطاء من يقصدهم أيّاً من ممتلكاتهم، علاوة على أنّهم يتقاسمون ما عندهم برضى وسر ور "..

وهكذا كان لرحلات كولومبس واكتشافه العالم الجديد أمريكاعام 1492 أثرها الكبير في إدخال أوروبا حقبة جديدة، وفي تغيير النظرة إلى الإنسان عامة، والإنسان الأوروبي خاصة، ممّا أثّر بالتالي في الفكر الأنثروبولوجي .وذلك لأنّ هذه الاكتشافات الجغرافية وما تبعها من معرفة سكان هذه الأرض بميزات وأنماط حياتهم، أظهرت بوضوح تنوّع الجنس البشري، و أثارت كثير من المسائل والد راسات حول قضايا النشوء والتطوّر عند الكائنات البشرية. لقد تميّز عصر النهضة الأوربية، بظاهرة كان لها تأثير في توليد نظريات جديدة عن العالم والإنسان، وهي أنّ المفكّرين اتفقوا، على الرغم من تباين وجهات نظرهم، على مناهضة فلسفة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاقت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء

وقد تبلور في هذه الفترة المذهب العلمي في الدراسات التجريبية والرياضية، التي ظهرت في أعمال بعض علماء القرن السابع عشر، من أمثال :فرانسيس بيكون و رنيه و ديكارت وغيرهم. حيث أصبحت النظرة

الجديدة للإنسان عل أنّه ظاهرة طبيعية، ويمكن دارسته من خلال البحث العلمي والمنهج التجريبي، ومعرفة القوانين التي تحكم مسيرة التطوّر الإنساني والتقدّم الاجتماعي.وهذا ما أسهم في تشكيل المنطلقات النظرية للفكر الاجتماعي، وأدّى بصورة تدريجية إلى بلورة البدايات النظرية للأنثروبولوجيا.

أمّا بالنسبة للدارسات أسلوب الحياة والعادات والتقاليد ودارسة مقارنة لأساليب الحياة للوصول إلى نظرية النظم الاجتماعية ، فثمةّ أعمال كثيرة قام بها العديد من العلماء في القرن السادس عشر من أمثال الرحالة الاسباني **جوزيه آكوستا** حيث ربط ملاحظاته الشخصيّة عن السكان الأصليين في العالم الجديد ببعض الأفكار النظرية، المحاولة الأولى لتدوين المادة الأثنوجرافية والتنظير بشأنها.

فقد افترض آكوستا أنّ الهنود الحمر كانوا قد نزحوا أصلاً من آسيا إلى أمريكا، وبذلك فسّر اختلاف حضارتهم عن تلك التي كانت سائدة في أوروبا حينذاك .وقدّم آكوستا أيضاً افتراض آخر حول تطوّر الحضارة الإنسانية عبر مراحل معيّنة، معتمداً في تصنيفه على أساس معرفة الشعوب القراءة والكتابة.

وقد وقفت أوروبا في أعلى الترتيب، وأتت بعدها الصين في المرتبة الثانية لمعرفتها الكتابة، بينما جاءت المكسيك في مرتبة أدنى من ذلك وصنّفت المجتمعات الأخرى بدرجات متباينة في المواقع الأدنى من هذا الترتيب .وربّما شكّل هذا التصنيف أساساً استند إليه الأنثروبولوجيون فيما بعد للتمييز بين المجتمعات.

وظهر إلى جانب اكوستا عالم الاجتماع الفرنسي ميشيل دي مونتاني وأجرى مقابلات مع مجموعات من السكان الأصليين في أمريكا المكتشفة، والذين أحضرهم بعض المكتشفين إلى أوربا .وبعد أن جمع منهم المعلومات عن العادات والتقاليد السائدة في موطنهم الأصلي، خرج بالمقولة التالية " :إنّه لكي يفهم العالم فهماً جيّداً، لا بدّ من دراسة التنوّع الحضاري للمجتمعات البش رية واستقصاء أسباب هذا التنوّع ".

ويأتي القرن الثامن عشر، ليحمل معه كتابات جان جاك روسو أهميّة كبيرة لدى مؤرّخي علم الأنثروبولوجيا، وذلك بالنظر لما تضمنته في د راسة للشعوب المكتشفة المجتمعات البدائية و لقد تميّزت وجهة النظر الأنثروبولوجية عند روسّو بالتجرّد والموضوعية، حيث تجلّى ذلك في نقد بعض القيم والجوانب الثقافية في مجتمعه الفرنسي، مقابل استحسان بعض الطرائق الحياتية في المجتمعات الأخرى .وفي هذا الإطار، يعدّ كتابه " العقد الاجتماعي "من البواكير الأولى للفكر الأنثروبولوجي .وكان إلى جانب روسّو، البارون دي مونتسكييه الذي وضع كتاب روح القوانين وأوضح فيه فكرة الترابط الوظيفي بين القوانين والعادات والتقاليد والبيئة .

أما في ألمانيا فجاءت أفكار علمائهم لتعزّز فكرة التمايز بين السلالات البشرية من ناحية التركيب الجسمي، والتفاوت فيما بينها و مدى التأثّر بمظاهر المدنية، وفي تمثّلها لمقوّمات الحضارة وعلى هذا الأساس يذهب "هيردر" إلى أنّ ثمّة سلالات بشرية خلقت للرقي، وسلالات أخرى قضي عليها بالتأخّر والانحطاط .

لكن هذا الاتجاه العنصري في الدراسات الأنثربولوجية، واجه انتقادات كبيرة في بداية القرن العشرين ، حيث برزت فكرة أنّه لا يجوز أن تتّخذ اللغة كأساس أو دليل على الانتماء إلى أصل سلالي واحد، وأنّ العلاقة بين الجنس البشري واللغة، لا يجوز أن تكون أساساً لتقسيم الشعوب الإنسانية إلى سلالات متمايزة .وقد نقض ذلك ودحضه، فيما بعد، الفكر الأنثروبولوجي القائم على المشاهدة الواقعية، والدارسة الميدانية المقارنة لمجتمعات الشعوب الأخرى.

وهنا يمكن القول : إنّ الأنثروبولوجيا المتحرّرة التي ظهرت اتّجاهاتها وقضاياها الانسانية، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، توجد – ولا شكّ - في الكتابات الفرنسية في عصر التنوير، جذورا أو أصولاً نظرية لمنطلقاتها الفكرية .

وتأسيساً على ما تقدّم، يمكن القول : إنّ الفكر الأنثروبولوجي الذي ساد أوروبا في عصر التنوير، وتجلّى في كتابات العديد من الفلاسفة والباحثين والمؤرّخين، شكّل الملامح النظرية الأولى لعلم الأنثروبولوجيا، الذي بدأ يستقل بذاته مع بدايات القرن العشرين، ويتبلور بمنطلقاته وأهدافه في النصف الثاني من القرن ذاته.